حركة الزمن في (رائية) عمر بن ابي ربيعة المخزومي المطولة بين السلب والايجاب

م.د.جميل بدوي حمد الزهيري
كلية الآداب/ جامعة واسط
م.د.هادي سدخ زغير العزاوي

المقدمة:

لايمكن أن نعرف الزمن تعريفاً جامعاً مانعاً بمعزل عن المكان، فإذا كان الزمن يعني الوقت المكون من أقل جزء الى مالانهاية له، فهذا الوقت بمختلف صوره لايدرك إلا بإقترانه بالمكان، فما يقوم به الانسان من فعل أو حركة على مكان يسمى (زماناً)، وكذلك مايحكم على ظواهر الطبيعة من التغيرات يسمى (زماناً)، فالزمان والمكان ((غير موجودين بشكل مجرد، بل لهما وجود ملموس دائماً، ووجودهما الملموس هو الذي يحدد صفاتهما الى حد بعيد... وان التأكيد على ملموسية صفات المكان والزمان هو وجه آخر من أوجه نسبيتهما))[١].

فلو افترضنا أن الزمن ظلام كله، أو ضياء كله، ولم نكن على مكان يتحرك، فعندئذ نفقد عناصر القياس في وحدة الحساب الزمني؛ لأننا لانملك المكان الذي نقوم عليه بنشاط نستطيع حسابه، فلا شمس تشرق، ولاقمر يبزغ، ولانجوم تتحرك فهنا يكون العدم وهذا غير متصور في حدود إمكان الانسان لحد الآن؛ وعليه فـ((إن تصور الإنسان للزمان والمكان هو تصور حسي، عيني، فللزمان صفته الموضوعية، ووجوده الحقيقي، فضلا عن تصور الزمان لانهائياً باعتباره من مظاهر الوجود المادي، أو المادي الالهي الازلي))[٢].

فالزمان والمكان عنصران لاينفصلان، وكل واحد منهما يكون وجهاً لصنوه [٣]، والعالم المحسوس محكوم بهذين العنصرين، لكن ماتركه الزمن من اثار معروفة على الكائنات؛ جعلت الإنسان يقف طويلاً أمام الزمن، ولاسيما في اشكالية الحياة والموت، فهو ((قضية أساسية، بل حقيقة حتمية لامناص منها، تعايشه وتعيه جميع الكائنات على مختلف مستوياتها وتدرجها التطوري، فالحضارات جميعها على مختلف العصور والازمان لم تهمل العنصر الزمني بل ادركت حقيقته واهميته))[٤]، لا من اجل معرفة الزمن مجردة، ولكن من اجل ايجاد الحسابات التي ترصد خلالها حركة الطبيعة ومانتركه من أثر على الكائنات؛ الأمر الذي حدا بالانسان ان يتتبع حركة المكان(الارض)، ومايتجم عنها من تعاقب الليل والنهار، والفصول الاربعة هذا التعاقب هو سبب متعلق بالميلاد والموت ومابينهما رحلة الانسان في هذه الحياة [٥] .

ومابين صرخة الميلاد وحشرجة الموت يكون الزمن وعاءً لتجاربنا وخبراتنا وذواتنا ففيه تكمن مظاهر الحياة كلها، وصنوف المرئيات كلها، وهذه المظاهر و الصنوف والتجارب الانسانية هي اشياء محسوسة تعطي صورة واضحة للزمن، فهو عندهم ليس مجرد كمٍّ من الدقائق [٦]. فالزمن هو ((حياة النفس في حركتها من احدى مراحل الفعل الى أخرى))[٧]. وهذه الحركة المنتجة لظهور الافعال خلال الحياة البشرية نراها جلية في النتاج الانساني في بناء الحضارات عبر مسار تاريخ الوجود في شتى ميادين الحياة، فقد

استوعب الانسان إشكالية الزمان منذ زمن بعيد وحاول ترجمتها في نشاطاته للتعبير عن أمرين متناقضين هما : الاصرار على التشبث بهذه الحياة كما راينا في ملحمة كلكامش الذي راح يبحث عن الخلود فلم يظفر به، او العجز امام قهرية الزمن، وهذا مانراه منبثاً في أعمال الكثيرين من الادباء والشعراء، فهم اكثر الناس احساساً بالزمن؛ لرهافة أحاسيسهم ورقة مشاعرهم فهم يرون مالايراه غيرهم، ويرصدون مالايرصده الاخرون فهذا برغسون يشهد للشعراء بقوله ((مامن احد كالشاعر يحس بالزمن))[٨] . فالشاعر يبحث دائماً عن زمن ارقى من زمانه محاولاً النهوض بالواقع المتخيّل على حساب مزاحمة الواقع المعيش، فهو يرتقي بصوره، المستقاة من واقعه باحثاً عن الاكمل والاجمل، فالزمن في صوره عنصر اساس قوامه تجربة الشاعر فهو يكتسب((اهمية كبرى في منظومة عناصر تشكيل صور الشاعر؛ لأنه كان هاجساً فكرياً ورؤيوياً فضلاً عن كونه عنصراً تصويرياً عمل على تأطير صوره وتحديد خلفيتها))[٩].

والزمن فضلاً عما تقدم يمنح الشاعر مجالاً ارحب للتحرك في ميادين التجربة الذاتية، فأنت تراه يتحرك من الحاضر الى الماضي منسحباً الى الوراء؛ لإظهار صورة، أومجموعة صور لحقبة ضربت بعيداً في عمق الزمان، وسرعان ماتراه مرة اخرى يحملك قافزاً الى استشراف المستقبل، وهو بهذا استطاع تحطيم حدود الزمن؛ ليتحرك بحرية اكبر؛ ليمنحك فرصة للتنقل بين ثنايا الازمنة، وهذا ماحفل به شعرنا العربي القديم، ولاسيما شعر ماقبل الاسلام متمثلاً بالوقوف على الاطلال، أو الرحلة بكل اشكالها . وقد أفاد الشعراء في العصور اللاحقة من هذا الموروث فوظفوه لخدمة تجاربهم، وحين تتصفح ديوان عمر بن ابي ربيعة المخزومي باحثاً عن عنصرالزمن تجده مكوناً اساساً في اظهار صور تجاربه الذاتية ومغامراته العاطفية بإسلوب قصصيٍّ مكَّنه من اللعب بعنصر الزمان وتحريكه بحسب رغبته . فقصصه كلها نسجت خيوطها من قصة القلب الانساني الرازح تحت تزاحم مواقف الزمن المتضارب اذ ملأ ديوانه بعوالم من واقعه وخياله جميعاً فانقادت له الصور المفعمة بمغامرات الشاعر التي مازج فيها بين الواقع والخيال.[١٠] ومن يقرأ رائية الشاعرعمر بن ابي ربيعة المطولة يجدها مشحونة بفاعلية حركة التناقض الزمني بين السلب والايجاب فهو يصحبك معه الى مجموعة من الازمنة المختلفة في تأثيرها على نفسية الشاعر المترنحة بين الاخفاق والنجاح، ونشوة اللقاء، وحرقة الفراق، وحرج المأزق، وحيلة الافلات محافظاً مع كل هذا على فتوة مغرورة، ورجولة قاهرة لنساء قد وقعن في شراكه صاغراتٍ، وهذا ماسنراه في دراستنا للحركة الزمانية في هذه القصيدة الرائعة.

حركة الزمن بحسب انماطه في هذه المطولة :

تتراوح حركة انماط الزمن في هذه القصيدة بين السلب والايجاب كاشفة للمتلقي عن تذبذب نفسية الشاعر، وعدم استقرارها على وتيرة واحدة، وهذا أمر مألوف، فالشاعر ينطلق من تجربته الذاتية ومايحيط بها من مؤثرات تمليها عليه الاعراف الاجتماعية، والوازع الديني، وينزع ابداً الى التحليق حرًا في سماء الفن ؛لاغناء تجربته، واشباع غرائزه، والخلاص من قيود المواصفات التي تحد من حركته؛ ولذا فهو يجد نفسه في حالة صراع مع المجتمع والزمن، وكأن المجتمع هو المتحكم بتلوين زمن الشاعر بألوان نفسية متضادة

،فهو حين يؤاتيه الحظ بلقاء احدى صويحباته يهادن الزمن ويشيد به، وحين يخفق في موعد، أو لقاء، أو اشباع غريزة، أو تحقيق بغية يرجوها تراه يعد الزمن عدواً لدوداً سالباً من بين يدي الشاعر مايتمناه، ومن هنا جاز لنا ان نقسم حركة الزمن في هذه القصيدة الى نمطين رئيسين هما: حركة الزمن بالاتجاه الايجابي، وحركته بالاتجاه السلبي اعتماداً على تغليب الصفة، ونجد تحت كل نمط من هذين النمطين عناوين اخرى لانماط اخرى بحسب موقف الشاعر النفسي ،فهناك الزمن المتمنى، وزمن المغامرة، وزمن المأزق، وزمن الحل، وزمن الانفراج، وزمن الرحيل، وزمن الفراق، وزمن الرجوع، وزمن الاستشراف... الخ . ولكن من الصعب الفصل التام بين هذه الأزمنة؛ لأسباب عديدة:

أولها- التداخلية المفروضة لطبيعة الزمن في ذهنية الباث والمتلقي أي المرسل والمستقبل، فقد يعني المرسل شيئاً من توظيف زمن ما، ويفهم المتلقي غير ماذهب اليه الاول.

وثانيها– عدم وجود صفة الجسمانية في الزمن على العكس من المكان، فليس للزمن حدود شاخصة انما حدود الزمن تتسم بالسرابية، وقد يقول قائل ان حدود الماضي تنتهي عند الحاضر، وحدود الحاضر تنتهي عند المستقبل، ولكننا نرى الامر ليس كذلك، فهذه الحدود وضعت للتعلم أما في الفن والادب فهي خطوط وهمية.

وثالثها–إن الشاعر يعمد الى كسر هذه الحدود في حالة التداعي، فلا تجد عند الشاعر الاّ حركة دؤوبة بين الماضي والحاضر والمستقبل متمثلة بالانماط الآتية:

١– **زمن التمني**:

نلحظ أن الشاعر يجرد من نفسه شخصاً آخر يفتتح به فضاء نصه سائلاً إيَّاهُ عن وقت سفره الى تلك الحبيبة على سبيل التمني؛ لشدة تشوقه اليها مستعملاً زمن المستقبل، فالسفر لم يكن واقعاً حقاً؛ لان الشاعر يظهر لنا خيبة امله بـ(نعمٍ) التي كتم في نفسه مايبتغيه منها قارًّا بأن السفر اليها لايجدي نفعاً، فهو واقع بين اعترافه بعدم الجدوى من زيارتها، وبين فقدان صبره على فراقها، وهنا يجد الشاعر نفسه في دائرة سلبية، فآفاق، المستقبل مسدودة في منظور الشاعر النفسي، فهو يقول:

أَمِنْ آلِ نُعْم ٍ أَنْتَ غَادٍ فَمُبْكِرُ غَدَاةَ غَدٍ أَمْ رَائحٌ فَـمُهَجَّرُ
لِحَاجَةِ نَفْسٍ لَمْ تَقُلْ فِي جَوَابَهَا فَتُبْلِغَ عُذْرًا، والْمَقَالَةُ تَعـذِرُ
أَهِيمُ إلى نُعْم ٍ: فَلاَ الشَّمْلُ جَامِعٌ وَلاَ الحْبلُ مَوْصُول،وَلاَالْقَلْبُ مُقْصِرُ
وَلا قُرْبُ نُعْمٍ–إنْ دَنَتْ – لَكَ نَافِعٌ ولاَنأيُهَا يُسْلِي، وَلاَأَنْـتَ تَصْبِرُ(١١)

فمستقبل الشاعر قد سُدَّ بزمن سلبي اخر حين قطع الماضي انسيابيته عابثاً بالترتيب المنطقي لدوران الزمن اذ فاجَأنا الشاعر بسرعة الرجوع الى ذلك الماضي الاليم الذي ترك اثرًا عميقاً في نفس الشاعر كاشفاً لنا عن تجربة اليمة ألمّت به في الزمن الماضي، وكأن الشاعر يدور في حلقة سلبية بفعل الزمن اذ انتهى من حيث بدأ فهو يقول :

وَأُخْرَى أَتَتْ مِنْ دُونِ نُعْمٍ ، وَمِثْلُهَا نَهَى ذَا النُّهَى لَوْ يَرْعَوي أَوْ يُـفَكِّرُ

إذَا زُرْتُ نُعْماً لَمْ يَزَلْ ذُو قَرَابَةٍ لَهـا كُلَّمَا لاقَيْتُهَا يَتَنَمَّـرُ
عَزِيزٌ عَلَيهِ أَنْ أُلِـمَّ بِبَيْتِهَا يُسِرُّ لِيَ الشَّحْنَاءَ ، وَالْبُغْضَ يُظْهِرُ[١٢]

٢- زمن الالتفات :

وقد يلتفت الإنسان إلى زمن مضى وانقضى؛ لاسترجاع ذكريات يأنس بها في الأعم الأغلب فارًّا من وطأة زمن اخر قد سلبه نظارته ورونقه ((فالشعراء دائماً يرتدون بأبصارهم الى الوراء الى أغلى جزء مضى وانقضى من حياتهم)) [١٣]؛ وعليه فهذا الضرب من الازمنة يعد ايجابياً، ولكن شاعرنا مهَّدَ به للوصول الى حقيقة مادية وهي أثر الزمن السلبي على الشاعر ونعني به زمن الوطأة التي غيرت الكثير من ملامح الشاعر وصفاته ؛ لاظهار صورتين لزمنين مختلفين **اولهما** : ايجابية الصورة في الزمن الماضي، **وثانيهما** : سلبية الصورة في الزمن الحاضر الذي يرزح الشاعر تحت وطأته، فهو يقول :

بِآيَةِ مَاقَالَتْ غَـدَاةَ لَقِيتُهَا بِمَدْفَـعِ أَكْنَانٍ: أَهذَا الْمُشَـهَّرُ
قِفِي فَانْظُرِي-أَسْمَاءُ- هَلْ تَعْرِفِينَهُ أَهَذَا الْمَغِيرِيُّ الَّذِي كَانَ يُذْكَـرُ
أَهَذَا الَّذِي أطرَيْتِ نَعْتاً فَلَمْ أَكُنْ وَعَيْشِكِ أَنْسَـاهُ إِلى يَوْم أُقبرُ
فَقَالَتْ: نَعَمْ لاَشَـكَّ غَيّرَ لَوْنَهُ سُرَى اللَّيْلِ يُحْيِي نَصَّهُ وَالتَّهَجُّرُ
لَئِنْ كَانَ إِيَّـاهُ لَقَدْ حَالَ بَعْدَنَا عن العَهْد ،وَالإِنْسَـانُ قَدْ يَتَغَيَّرُ [١٤]

ولم يكتف شاعرنا باظهار أثر الزمن عليه بل زادنا ايضاحاً حين قارن بين صورته وصورة تلك الفتاة الحسناء المنعمة التي تعيش في زمنها المؤاتي لها بكل اسباب الدعة والشباب((فالحاضر يحمل في طياته المستقبل، وهو نتيجة الماضي، وصادر عنه، كما سيصدر عنه المستقبل أو الحاضر اللاحق، ولهذا يعد الحاضر اهم لحظات الزمان))[١٥]،كما في قوله :

وَأَعْجَبَهَا مِنْ عَيْشِهَا ظِلُّ غُرْفَةٍ وَرَيَّانُ مُلْتَفُّ الْحَدائِقِ أَخْضَـرُ
وَ وَالٍ كَفَاهَا كُلَّ شَيْءٍ يَهُمُّهَا فَلَيْسَتْ لِشَيْءٍ آخِرَ اللَّيْلِ تَسْهَرُ [١٦]

فحاضر هذه الفتاة كان مشرقاً متسماً بكمال الايجابية .

٣- زمن المغامرة:

يتسم هذا النمط بفاعلية الترقب والشد النفسي من قبل المتلقي حتى يجد نفسه واقعاً في دائرة قلق المغامرة المتصاعد، فقد عمد الشاعر الى تصعيد وتيرة فاعلية الزمن بالتقييد اذ جعله ليلاً لموائمة الحدث مع صفة الزمن، فلوقع فاعلية الزمن في هذا النص وجهان: **الاول**، سلبي في المنظور النفسي للمتلقي، **والثاني**، ايجابي في المنظور النفسي للشاعر؛ وذلك لمجهولية نتائج الفعل لدى المتلقي، وحسم نتائج المغامرة لدى الشاعر، ويتجلى لك ذلك في قوله :

فَبِتُّ رَقِيباً لِلرَّفَاقِ عَلَى شَفاً أُحاذِرُ مِنْهُمْ مَنْ يَطُوفُ وَأَنْـظُرُ
إِلَيْهِمْ مَتَى يَسْتَمْكِنُ النَّـوْمُ مِنْهُمُ وَلِي مَجْلِسٌ ،لَوْلاَ اللُّبَانَةُ أوعَـرُ
وَباتَتْ قَلُوصِي بالْعَرَاءِ وَرَحْلُهَا لِطَارِقِ لَيْلٍ أو لِمَنْ جاءَ مُعْوِرُ

وَبِتُّ أُنَاجِي النفْسَ أَيْنَ خِبَاؤهَا وَكَيْفَ لِمَا آتِي مِنَ الأمرِ مَصْدَرُ؟
فَدَلَّ عَلَيْهَا الْقَلْبَ رَيَّا عَرَفْتُهَا لَهَا، وَهَوَى النَّفْسِ الَذِي كَادَ يَظْهَرُ
فَلَمَّا فَقَدْتُ الصَّوْتَ مِنْهُمْ وَأُطْفِئَتْ مَصَابِيحُ شبَّتْ بالْعِشَاءِ وَأَنْـوُرُ
وَغَابَ قُمَيْرٌ كُنْتُ أَهْوَى غُيُوبَـهُ، وَرَوَّحَ رُعْيَانٌ، وَنَـوَّمَ سُمَّـرُ
وَخُفِّضَ عَنِّي الصَّوْتُ أَقْبَلْتُ مِشْيَةَ الْحُبَـ ابِ وَشَخْصِي خَشْيَـةَ الْحَيِّ أَزْوَرُ (١٧)

وتتركز بؤرة ايجابية فعل الزمن بلحظات الظفر، فقد قطف الشاعر ثمار مغامرته في حدود زمن لقاء الحبيبة اذ يقول :

فَحَيَّيْتُ إِذْ فَاجَأْتُها ، فَتَوَلَّـهَتْ، وَكَادَتْ بِمَخْفُوضِ التِحيَّةِ تَجْهَـرُ
وَقَالَتْ وَعَضَّتْ بالْبَنَانِ:فَضَحْتَنِـي وَأَنْتَ امْرُؤ مَيْسُورُ أَمْرِك أَعْسـرُ
أَرَيْتَكَ إِذْ هُنَّا عَلَيْكَ أَلم تَخَـفْ وُقِيتَ وَحَوْلِي مِنْ عَـدُوّك حُضُّرُ؟
فَوَ اللهِ مَاأَدْرِي: اتَعْجِيلُ حَاجَـةٍ سَرَت بِكَ،أم قَد نَامَ مَنْ كُنْتَ تَحـذَرُ
فَقُلْتُ لها:بَلْ قَادَنِي الشَّوقُ وَالهوَى إِلَيْكِ، وما نَفْسٌ مِنَ النَّاسِ تَشْـعُرُ
فَقَالَـت وَقَد لاَنَت وَافْرَخَ رَوعُها: كَلاَكَ بحفـظ رَبُّـكَ الْمُتَكبِّـرُ
فأَنْـت ابَا الْخَطَّاب ،غَيْرَ مُدَافِعٍ، عَلَيَّ أَمِــيرٌ مامكثت مؤمـرُ
فَبِتُّ قَرِيرَ الْعَيْنِ ، أُعْطِيتُ حَاجِتِي أَقَبِّلُ فاهَا فِي الْخَـلاَءِ فَأُكْثِـرُ
فَيَالَكَ مِنْ لَيْلٍ تَقَاصرَ طُولـهُ وَ مَـا كَانَ لَيْلِي قَبْلَ ذَلِكَ يَقْصُرُ
وَيـالَكَ مِن مَلْهًى هُنَاكَ وَمَجْلِسٍ لَنَا لَـم يُكَدِّرْهُ عَلَيْنَا مُكَـدِّرُ (١٨)

لقد تحول العدم الى وجود حيني، فلذة زمن الظفر بالحبيبة لاتدوم، فلا بد من التراخي ثم الانحلال، إذ تحول العدم بفعل الزمن الى وجود حيني من خلال لذة زمن الظفر بالحبية التي لاتدوم ولكنها ((تسجل لقطة من الحياة في حركتها الدائمة وديمومتها السرمدية))(١٩).

٤-زمن المأزق :

لايمكن لأيِّ أحدٍ أن يرسم طريقاً لمسار الزمن؛ لأنه هو المؤثر الوحيد في تحريك الاشخاص والافعال، وذلك بفعل استمراريته الدائمة، وجبريته القاهرة، فالزمن ((هذا السيل المتدفق المستمر من الماضي الى الحاضر فالمستقبل، وفي سيلانه حركة تحمل الصيرورة والتحول والتغيير؛ لذلك تتجلى آثاره في الاشياء والامكنة والانسان))(٢٠) الذي يجد نفسه محكوماً بتأثير الزمن الذي لايعرف التوقف، فبعد زمن الظفر لابد من حركة اخرى ؛ لتغيير طبيعة واقع الحال إذ تحركت إيجابية الزمن نحو الاتجاه السلبي المتمثل في مأزقية الموقف الذي يتحرك صوب حلحلة الازمة نحو الانفراج ،وهذا مانراه في قوله:

فَلَمَّا تَقَضَّى اللَّيْلُ إلاَّ أقلّـهُ وَكَادَتْ تَوَالِي نَجْمِهِ تَتَـغَوَّرُ
أَشَارَت بأَنَّ الْحَيَّ قَد حَانَ مِنْهُمُ هُبُوبٌ، وَلكِنْ مَوعِدٌ مِنْكَ عَزْوَرُ
فَمَا رَاعَنِي إلاَّ مُنَادٍ: تَرَحَّلُـوا، وَ قَد لاَحَ مَعْرُوفٌ مِنَ الصُّبْحِ أَشْقَرُ

فَلَمَّا رَأتْ مَنْ قَدْ تَنَبَّهَ مِنْـهُمُ ... وَ أيقاظَهُمْ قَالَت : أشِرْ كَيْفَ تَأْمُرُ

فَقُلْتُ: أبَادِيهِم ، فَإمَّا أفُوتُهُمْ، ... وَإما يَنَالُ السَّيْفُ ثـأْرا فَيُثْأَرُ

فَقَالَت: أتَحقِيقاً لِما قَالَ كَاشِحٌ ... عَلَينَا ، وَتَصدِيقاً لَمِا كَانَ يُؤْثَرُ؟

فإنْ كَانَ مَا لابُدَّ مِنْهُ فَغَيْرُهُ ... مِنَ الأمرِ أدنى لِلْخَفَاءِ وَاسْتَرُ

أقُصُّ عَلَى أُخْتَيَّ بَدْءَ حَدِيثِنَا ... وَمَالِيَ مِنْ أنْ تَعْلَمَا مُتَأَخَّرُ

لَعَلَّهُمَا أنْ تَطْلُبَا لَكَ مَخْرَجـاً ... وَأنْ تَرحُبَا سِرْباً بِمَا كُنْتُ أحْصَرُ

فَقَامت كَئِيباً لَيْسَ في وَجْهِهَا دَمٌ ... مِنَ الْحُزنِ ، تُذْرِي عَبْرَةً تَتَحَدَّرُ

فَقَامَتْ إلَيْهَا حُرَّ تَانِ عَلَيْهِمَـا ... كِسَا آن مِن خَزَّ دِمَقْسٌ وَأخْضَرُ

فَقَالَت لأخْتَيْهَا : أعِينَـا عَلَى فَتىً ... أتَى زَائـراً ، وَالأمْرُ لِلأمْرِ يُقْدَرُ

فأَقْبَلَتَا ،فارتَاعتَا ،ثُمَّ قَالَتَـا : ... أقِلِّي عَلَيْكِ اللَّوْمَ فالْخَطْبُ أيسَرُ

فَقَالَت لهَا الصُّغْرَى : سَأعِطيهِ مُطْرَفِي

وَدِرْعِي ،وَهـذَا الْبُرْدَ إنْ كَـانَ يَحذَرُ

يَقُومُ فَيَمْشِي بَيْنَنَـا مُتَنَكِّراً ... فَلاَ سِرُّنَا يَفْشُو ، وَلاَهُوَ يَظْهَـرُ

فَكَانَ مِجَنِّي دُونَ مَنْ كُنْتُ أتَّقِي ... ثَـلاَثُ شُخُوصٍ كَاعِبَانِ وَمُعْصِرُ

فَلَمَّا أجَزْنَا سَاحَةَ الحيِّ قُلْنَ لي: ... أمَا تَتَّقِي الأعداءَ واللَّيـلُ مُقْمِرُ؟

وَقُلْنَ :أهذَا دأْبُكَ الدَّهْرَ سَادِراً؟ ... أمَـا تَستَحِي أو تَرْعَوِي أوتُفَكرُ؟

إذَا جِئْتَ فَامنَحْ طَرْفَ عَيْنَيْكَ غَيْرَنَا

لِكَيْ يَحْسِبُوا أنْ الهوَى حَيثُ تَنْظُرُ[٢١]

يلحظ الباحث أن عقدة تحرك الشاعر في دائرة الزمن هي المرأة؛ لانها تمثل عاملا من عوامل جذب الاخر نحوها كونها هدفا يسعى اليه الشاعر المستهام، وبيدها زمام التدبير، ومفتاح الحل، ففي مواقفها جميعا نجد((نكران الذات، وهي تكملة للمواقف المختلفة التي فرضتها العاشقة او المعشوقة على نفسها))[٢٢]، فقد حاولت الحبيبة ان تتدخل في توجيه الاخر تجنبا لتأثير الزمن في كشف الموقف وخوفاً من الفضيحة.

٥- زمن الفراق:

يحمل الزمن في طياته كمًّا هائلا من التناقضات التي يقوم عليها استمرار الوجود، فالزمن لا يعرف الانطواء فهو في حالة حركة دائمة في مختلف الاتجاهات بفعله لا بحقيقته، فالميلاد يقابله الموت، واللقاء يعقبه الفراق، وكل جمع يؤول الى شتات، فالزمن بطبيعته المتحركة يعمل على اتساع رقعة الحياة ودوام استمراريتها، فلولا هذه الحركة المتوازنة الدائمة التي يتسم بها الزمن؛ لانكمشت الحياة، وحل الفناء، واذا كانت ايجابية اللقاء بُغية متحققة تمنح الطرفين انتصارًا لذيذًا على التقاليد والاعراف، فإن حدودها تنتهي عند سلبية زمن الفراق.

ويبدو أن حركة الزمن تتسارع في حالة الايجاب، وتتباطأ في حالة السلب – بحسب احساسنا به– حتى تكاد تتوقف؛ وذلك بفعل اختلاف وقع الاثرين على ذات الشاعر. فحركة زمن الفعل في الحالة الاولى صوب التجاذب بين العاشقين. اما في الحالة الثانية فتتجه هذه الحركة نحو التنافر السلبي، وهذا ما ندركه في قول عمر بن ابي ربيعة :

فَآخِرُ عَهْدٍ لِي بِهَا حَيْثُ أَعْرَضَتْ وَلَاحَ لَهَا خدٌّ نَقِيٌّ وَمَحجِرُ

سِوَى أنني قَد قُلْتُ يَا نُعْمُ قَولَةً لَها وَالْعِتَاقُ الأَ رْحَبِيَّاتُ تُزْجَرُ

هَنِيئا لأهلِ الْعَامِرِيَّةِ نَشْرُهَا الَّــ لذِيذُ وَرَيّاهَا الذِي أَتذَكَّرُ[٢٣]

لقد أظهرت لنا هذه الابيات أن الفراق حالة قهرية يحكم بها الزمن على سائر المخلوقات، وهو وجه من أوجه التلاشي والاضمحلال، فليس((غريبا حينئذ أن تنتهي كثير من قصائد عمر بن ابي ربيعة بالحديث عن الفشل، أو الفراق أو أن تتسلل وسط صوره المشرقة لمسات قاتمة لها دلالتها على ما تنطوي عليه نفس الشاعر من حزن دفين يجمع بين الحب والموت))[٢٤]، فقد تعاورت الشاعر حالات متناقضة في هذه المطولة متقلبا بين حين اللذة وحين الألم أي زمن الايجاب وزمن السلب.

٦- زمن الرحيل:

يعد زمن الرحيل المتسم بالسلبية نتيجة حتمية لزمن الفراق، وما دام زمن الفراق يعني حركة التباعد عن الاخر فهو يمثل الخطوة الاولى على طريق الرحيل تماشيا مع انسيابية حركة الزمن نحو مستقبل مجهول؛ ويكون بذلك لزاما على الشاعر ان يستجيب لسلبية حركة الزمن، فالرحيل هو زمن للصراع بين الانسان والحياة التي تنتهي عند الموت((فكل حركة في الزمن هي حركة نحو الموت، وكل طلوع شمس وغروب يمثل نقصا في ذخيرة الانسان من الحياة))[٢٥]،وهذا ما يمنح حركة الرحيل سمة الهروب من حتمية الموت التي تنتهي عندها حركة تلك الرحلة؛ لتفتح مسلكا آخر؛ لتجدد الحياة لأُناس آخرين((فالانسان يخضع للتعاقب الطولي الذي ينتهي بالموت؛ لتستمر الحياة في تعاقبها الدائري، حيث تعاقب الفصول والليل والنهار. فديمومة الزمن واستمراريته وتقدمه الصاعد صوب الموت، هو الدافع وراء قلق الانسان وحيرته وبحثه في مقولة الزمن للكشف عن ماهيته))[٢٦].

فقد رحل شاعرنا صاغراً امام سطوة الزمن السَّلبي في سفر بعيد يتسم بالمشقة ممثلا رحلة الانسان في هذه الحياة، ويلحظ المتلقي ان نهاية رحلة الشاعر في هذه المطولة مفتوحة على جميع الاحتمالات، وهذا ما يؤكد حيرة الانسان ووقوعه بين ايجابية الزمن وسلبيته في حالة من القلق المشوب بالخوف الدائم من قهرية الزمن كما في قوله:

وَقُمْتُ إلى عَنْسٍ تَخَوَّنَ نَيَّها سُرَى اللَّيْلِ حتَّى لَحْمُهَا مُتَحَسَّرُ

وحَبْسِي عَلَى الحاجَاتِ حتَّى كأنَّهَا بَقِيَّةُ لَوْحٍ أو شِجَارٌ مُؤَسَّرُ

وَمَاءٍ بمَوْمَاةٍ قَلِيلٌ أنِيسُهُ بَسَابِسَ لَم يَحْدُثْ بِهِ الصَّيْفَ مَحْضَرُ

بِهِ مُبْتَنَى لِلْعَنْكَبُوتِ كأنَّهُ عَلَى طَرَفِ الأرجَاءِ خَامٌ مُنَشَّرُ

وَرَدْتُ وَمـا أدري أمَا بَعْدَ مَوْرِدِي مِنَ اللَّيْلِ أم مَا قَد مَضَى منْهُ أكْثَـرُ
فَقُمْتُ إلى مِغْلاَةِ أرْضٍ كَأَنَـها إذَا الْتَفَتَتْ مَجْنُونَةٌ حِيـنَ تَنْظُرُ
تُنَازِعُنِي حِرْصاً عَلَى المَاءِ رَأسَهَا وَمِنْ دُونِ مَا تَهْوَى قَلِيبٌ مُعَوَّرُ
مُحَاوِلـةَ لِلْمَاءِ لَولاَ زِمَامُها وَجَذْبِي لَها كَادَتْ مِرَارًا تَكَسَّـرُ
فلَمَّا رَأيْـتُ الضرَّ منْهَا وَأنَّنِـي بِبَلْدَةِ أرضٍ لَيـسَ فيهَا مُعَصَّرُ
قَصَرْتُ لهَا مِن جَانِـبِ الْحَوضِ مُنْشَأً
جَدِيـداً كَقَابِ الشِّبْر أو هُوَ أصْغَرُ
إذَا شَرَعَتْ فيـهِ فَلَيـسَ لِمُلْتَقى مَشَافِرِهَا مِنْهُ قِدَى الكفِّ مُسْـأَرُ
وَلاَ دَلْوَ إلاَّ القَعْبُ كَـانَ رِشَاءَهُ إلى الْمُـاءِ نِسْعٌ وَالأَ دِيمُ الْمُضَفَّرُ
فَسَافَتْ،وَمَا عَافَتْ،وَمـا رَدَّ شُرْبَهَا عَن الرَّيِّ مَطروقٌ منَ الماءِ أكْدَرُ[٢٧]

كشفت لنا هذه المطولة أنَّ الشاعر تقلب بين نعيم الزمن وشقائه، وحلوه ومره، وهو بذلك يقدم لنا أنموذجا لحقيقة الانسان في هذه الحياة، والتناغم مع حركة الزمن سلبا وايجابا؛ لان ((مواجهة الانسان للحدث بصورة مباشرة تضعه وجهًا لوجه مع الزمن في محاولة لمعايشة اللحظةالحاضرة ،فيبدأ الصراع معه تبعا لثقل الحدث والحالة النفسية التي تعيشها الذات))[٢٨] دافعا ثمن هذا الصراع من شبابه ورونقه حتى يسلبه الزمن كل شيء عند نقطة التلاشي.

الخاتمة

بعد المرور في أنماط زمن هذه الرائية؛ استطعنا أن نرصد حركة زمن الشاعر الذي بنى عليه قصيدته التي تفردت عن سائر قصائد ديوانه بشمولية توظيف الزمن فيها؛ للنهوض بكشف الاثار الناجمة عن حركة الانماط بين السَّلب والايجاب، ومد التجربة الذاتية بدلالات زمانية شكلت عنصرًا اساساً في اثراء صور الشاعر ومنحها عمقا فكريا يكشف لنا بوضوح عن موقف الشاعر من هذا العالم فضلا عن فاعلية الزمن في التشكيل الصوري لهذه المطولة الذي ساعد على شد بناء هذه القصيدة التي بدت صورها مترابطة البناء بإحكام، وهذا هو سر خلود قصيدة عمر بن أبي ربيعة الرائية وتفوق ابداعه المتميز فيها.

فازمنة الشاعر لم تكن عائمة في متاهات الفكرة، إنما شكلت عالما يتحرك فيه الزمن في الحدود التي رسمها الشاعر لمسيرة حياته المتأرجحة بين أجزاء الزمن المترابطة ترابطاً وثيقا؛خدمة لابراز صورة الانسان المحكوم بتعاقب تلك الاجزاء والمسير بفعل حركاتها وتقلباتها.

النتائج

وغاية كل دراسة هي الخروج بنتائج يضعها الباحث بين يدي قرّائه، ومن اهم النتائج التي توصل اليها هذا البحث في حركة الزمن لمطولة عمر بن أبي ربيعة هي :

١-إنَّ الزمن بشقيه السَّلبي والايجابي شكل عنصرا حيويا في بناء هذه الرائية .

٢-إنَّ كل حركة شعرية في هذه القصيدة محكومة بفاعلية الزمن، فلا يمكن فصل حركة الشاعر في قصيدته عن مسار الزمن.

٣-عمد الشاعر الى زج هذا الحشد من انماط الزمن في قصيدته؛ لاغناء تجربته بالوان الازمنة التي توحي بتقلبات الشاعر بين اطوار حياته.

٤-لم يقف عمر بن ابي ربيعة في هذه القصيدة على طلل ؛ ليجعل منه منطلقا لزمانه، وانما وقف على الزمن؛ ليجعله منطلقا ؛ لاغناء تجربته وابرازها للمتلقي.

٥-إنَّ حركة الشاعر في هذا النص جعلت اللامرئي من الزمن في مرتبة المرئي حين يكون ماضياً او حاضراً او مستقبلا مستعيناً على ذلك بوسائل من اهمها الومضة الوصفية الخاطفة لحبيبته،او لواسطة رحيله، أو ذاته، أو بتقييده زمن حركته، ففي كثير من مواضع هذه القصيدة يقيد الشاعر زمنه بالليل، أو النهار، أو الاشراق.

٦-مازج الشاعر في هذه المطولة بين الماضي والحاضر والمستقبل عابثا بمنطقية الترتيب الزمني؛ ليخدم عبثية النص الشعري التي تتطلب هدم الحواجز في لحظة اختلاط الصور في ذهنية الشاعر.

الهوامش

(١) الفيزياء النسبية والفلسفة/٦٣، وينظرالفيزياء والفلسفة/٩٢.

(٢) الزمان في الفكر الديني والفلسفي القديم/٧.

(٣) ينظر المكان في الشعر الاموي، اطروحة دكتوراه/٥، ونظرية النسبية والفلسفة/٦٣، والمعجم الفلسفي:٢/٤١٣.

(٤) الزمان- ابعاده وبنيته/١٠.

(٥) ينظر الزمن في الرواية العربية/٢٣.

(٦) ينظر الزمن التراجيدي في الرواية المعاصرة/٥٢.

(٧) الزمان في الفكر الديني والفلسفي القديم/١١٩.

(٨) ابواب ومرايا- مقالات في حداثة الشعر-/٧٢.

(٩) ذو الرُمَّة، شمولية الرؤية وبراعة التصوير/١٨١.

(١٠) ينظر الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني امية/٣٢٣.

(١١) شرح ديوان عمر بن ابي ربيعة/٩٢.

(١٣) م.ن/٩٣.

(١٣) مقدمة القصيدة في العصر الجاهلي/٢٢٧.

(١٤) شرح ديوان عمر بن ابي ربيعة/٩٣-٩٤.

(١٥) الزمان الوجودي/٢٠.

(١٦) شرح ديوان عمر بن ابي ربيعة/٩٥.

(١٧) م.ن/٩٥-٩٦.

(١٨) م.ن /٩٦-٩٨.

(١٩) في نظرية الرواية، مجلة عالم المعرفة،العدد(٢٤٠) لسنة ١٩٩٨م/٢٠٠.

(٢٠) الزمن في الرواية العربية/١١.
(٢١) شرح ديوان عمر بن ابي ربيعة/٩٨-١٠١.
(٢٢) الظاهرة الادبية في صدر الاسلام والدولة الاموية/٤٠٦.
(٢٣) شرح ديوان عمر بن ابي ربيعة/١٠١.
(٢٤) في الشعر الاسلامي والاموي/٢٢٥.
(٢٥) هاجس الخلود في الشعر العربي حتى نهاية العصر الاموي/٤٨.
(٢٦) الزمن في الرواية العربية/١١.
(٢٧) شرح ديوان عمر بن ابي ربيعة/١٠١-١٠٣.
(٢٨) الزمن في الرواية العربية/٢٧.

المصادر والمراجع

* الكتب:

١- ابواب ومرايا- مقالات في حداثة الشعر، خيري منصور، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٧م.

٢- ذو الرُمَّة، شمولية الرؤية وبراعة التصوير، د.خالد ناجي السامرائي، ط١، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد،٢٠٠٢م.

٣- الزمان- ابعاده وبنيته، د.عبد اللطيف الصديقي، ط١، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت،١٩٩٥م.

٤- الزمان في الفكر الديني والفلسفي القديم، د.حسام الدين الالوسي، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت،(١٩٨٠م-١٤٠٠هـ).

٥- الزمان الوجودي، عبد الرحمن بدوي، ط٢، دار الثقافة، بيروت،١٩٧٣م.

٦- الزمن التراجيدي في الرواية المعاصرة، سعد عبد العزيز، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة ، ١٩٧٠م.

٧- الزمن في الرواية العربية،د.مها حسن القصراوي،ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،بيروت،٢٠٠٤م.

٨- شرح ديوان عمر بن ابي ربيعة المخزومي،تحقيق:محمد محيي الدين عبد الحميد،ط٢،مطبعة السعادة، القاهرة،١٩٦٠م.

٩- الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني اميّة، د.شوقي ضيف، ط٤، دار المعارف، مصر،١٩٧٩ م.

١٠- الظاهرة الادبية في صدرالاسلام والدولة الاموية، احسان سركيس، ط١، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت- لبنان،١٩٨١م.

١١- الفيزياء النسبية والفلسفة، تأملات في الفكر العلمي المعاصر، معن النقري، دار الحقائق، بيروت، ١٩٨٢م.

١٢- الفيزياء والفلسفة، جيمس جينز، ترجمة: جعفر رجب، دار المعارف، القاهرة،١٩٨١م.

١٣- في الشعر الاسلامي والاموي، د.عبد القادر القط، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت،١٩٧٥م.

١٤- المعجم الفلسفي، د.جميل صليبا، الجزء الثاني، دار الكتاب اللبناني ودارالمدرسة، بيروت، ١٩٨٢م.

١٥- مقدمة القصيدة في العصر الجاهلي، د.حسين عطوان، دار المعارف، مصر،١٩٧٠م.

١٦- نظرية النسبية والفلسفة، د.احمد السيد علي رمضان، مكتبة الايمان، القاهرة، ١٩٩٩م.

١٧- هاجس الخلود في الشعر العربي حتى نهاية العصر الاموي، د.عبد الرزاق خليفةمحمود الدليمي، ط١، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد،٢٠٠١م.

*** الدوريات:**

١- في نظرية الرواية، عبد الملك مرتاض، مجلة عالم المعرفة، العدد(٢٤٠) المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب، الكويت، ١٩٩٨م.

*** الرسائل الجامعية:**

١- المكان في الشعر الاموي، د.جميل بدوي حمد الزهيري، اطروحة دكتوراه، كلية التربية – الجامعة المستنصرية، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م.